وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

توظيف الشافعية في الخطاب العربي المعاصر: رؤى .. وتصورات

يوسف بن عدي

القدس العربي : 2009/3/3م

لا شك أننا نتحدث في القراءات الحديثة والمعاصرة للتراث العربي الإسلامي القديم، بل وحتى في سياق الفكر الفلسفي المعاصر،عن الفارابية و السينوية..والرشدية و الباجوية..والشيرازية، وفي الضفة الأخرى نتكلم عن الديكارتية والكانطية...والهايدغرية والفوكوية..الخ. وهذا يعني أننا اصبحنا ندرس إشكالات الفكر الرشدي أو مشكلات التفكير الكانطي. وهو الأمر الذي نجريه على موضوعنا الان، وهو أن الشافعية هي: البناء المعرفي والإيديولوجي المرتبط بمنظومة فقهية واجتماعية مشروطة ببعدها التاريخي. ويجري هذا الكلام على المؤسس للمذهب الفقهي والتشريعي محمد بن إدريس الشافعي وعلى اتباعه من الشراح والمفسرين.

ومن ثمة ارتأينا أن نعرج على بعض النصوص العربية المعاصرة التي انخرطت في توظيف الشافعية في إطار قراءتها للتراث العربي والإسلامي بعلة تحقيق طموحات وأهداف إيديولوجية أو معرفية ابيستومولوجية.. وقد انتخبنا بعض الرؤى والتصورات على أساس توفرنا على بعض منها، وان كان البعض الآخر من الرؤى أو النماذج نعرف منطق تفكيرها لكننا لم نحصل على النص المباشر..ومنها: دراسة الكاتب رضوان السيد المعنونة بـ'الشافعي والرسالة، دراسة في تكوين النظام الفقهي في الإسلام'، مجلة الاجتهاد العدد9/1990. ومن هنا فإننا سنرصد الرؤية المنهجية لكل من نصر حامد ابوزيد-:'الإمام الشافعي وتأسيس إيديولوجية الوسطية' (1994) ، ونص لمحمد عابد الجابري،:'تكوين العقل العربي' (2000)، ونص آخر لسالم حميش: 'التشكيلات الإيديولوجية في الإسلام. الاجتهادات والتاريخ' (1993). وأخيرا وليس آخرا، كتاب عبد المجيد الصغير المعنون بـ: 'الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام. قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة' (1994).

ان البحث في طرق توظيف الشافعية في الخطاب العربي المعاصر هو بحث يتخطى حدود المقال ومراميه، لكثرة القراءات السائدة عن التراث العربي الأصولي والفقهي من رؤى استشراقية ورؤى تاريخية وتصورات فقهية خالصة..

لهذا سنعمل من خلال النصوص المشار إليها أعلاه، والتي بدورها تستحق أكثر من وقفة وتأمل،النظر في منهج ورؤى هؤلاء الباحثين والمثقفين، لبيان مدى فعالية هذا المنهج وقوة الرؤية. لان الأمرلا يتعلق بالعودة إلى نصوص ابن رشد او ابن باجه أو مقولات الشافعي أو افكار هيغل، وانما بالعودة إلى أعمال الفلاسفة وأهل النظر من الفقهاء والمتكلمين.. برؤية منهجية فاعلة ومثمرة.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

لقد انخرط الكاتب المصري نصرحامد ابوزيد في مقاربة منظومة الشافعي في إطار مشروعه المتميز حول رسم معالم التأويل في الفكر العربي والإسلامي. ومن هنا كان نص 'الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية' (1992) ،هو التفكير في مآزق العقل العربي الذي تسيطر فيه سلطة النصوص. يقول نصر حامد ابو زيد 'وقد آن الأوان للمراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر لا من سلطة النصوص وحدها بل من كل سلطة تعوق مسيرة الانسان في عالمنا'. (صفحة 111 من كتاب الامام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية). إنها مراجعة لمقولات المنظومة الشافعية المؤولة وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس. وهذا من خلال منهج تحليل الأفكار وإبراز البعد والمغزى الإيديولوجي والسياسي. وهكذا فان الرؤية في تحديد السنة والكتاب لدى الشافعي إنما كانت تخضع للصراع الفكري مع أبي حنيفة الذي كان من أصول فارسية عكس الشافعي المدافع عن النزعة القرشية الأصلية (صفحة 18 من كتاب الامام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية).. .فضلا على ذلك كان يسعى صاحب الرسالة إلى توحيد المختلف وقهر الفوارق..وهذا ما ردده سالم حميس في نصه 'التشكلات الايديولوجية في الإسلام' برؤية منهجية تستند على تحليل بنيوي تاريخي بقوله:

إن الشافعي' أول من استشعر أخطار الاختلاف الظاهرة والمضمرة وعبرعنها. واليه يرجع الفضل في رصد عوامله وتظاهراته والسعي إلى ردمها أو على الأقل تقويضها'. (صفحة 38 من كتاب التشكلات الايديولوجية في الإسلام).. وأما القياس كدعامة قوية في النظام الفقهي عند الشافعي هو،كما يقول نصر حامد ، 'موجود بالفعل في النصوص الدينية وان كان وجوده خفيا أو مستترا'. (صفحة 94 من كتاب الامام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية). وعليه فان من ' تجاوز النصوص/العلامات لإبداع حلول جديدة لو فعل ذلك لم يكن قاسيا بل يكون مستحسنا متلذذا'. (صفحة 98 من كتاب الامام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية(.

وعلى هذا فان تصورات الشافعي للقياس والاجتهاد والإجماع..أي نفي الاختلاف، هي التي دفعت الكاتب المغربي سالم حميش لانتقاد الفكر القياسي لدى الفقهاء الذين كانوا طيلة بداية الشرع الإسلامي لا يميزون بين الاجتهاد والقياس.'. .(صفحة 36 من كتاب التشكلات الايديولوجية في الإسلام(.

والمتأتي من ذلك أن انعكاسات هذه الرؤية على الفكر العربي هي أنها أولا: في رأي نصر حامد ابوزيد تعمل على 'تكبيل الانسان بإلغاء فعاليته وإهدار خبرته'. (صفحة 110من نص الامام الشافعي)، وهذا دفاع واضح عن الاتجاه الاعتزالي العقلاني. وثانيا: أن هذا التصور في رأي سالم حميش إنما ساهم في انسداد أفق الاجتهاد الذي من عوامله:

*انتقاد الشافعي لمبدأ الاستحسان.

*والصراع المذهبي ضد الإيديولوجيات المناهضة الشيعة والاعتزال...

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

وأما توظيف الشافعي في فكر الجابري فهو يحضر في أكثر من نص، اعني في 'تكوين العقل العربي' و'بنية العقل العربي' و'العقل الأخلاقي العربي'. لقد استثمرت الشافعية في تكوين العقل العربي في اطار رؤية ابستيمولوجية فائقة، والتي توظف منظومة الفقه وتقنين البيان والتشريع.. في إطار البحث عن أساسيات المعرفة أي في اطار النظام المعرفي البياني(حقلا وفعلا)..يقول الجابري: 'أخذنا تركيز اهتمامنا كله على الجانب الابستيمولوجي،أي البحث في ما يؤسس المعرفة داخل الثقافة العربية'. (صفحة 328 من كتاب تكوين العقل العربي). من هنا كان الشافعي هو المؤسس الأكبر لقواعد العقل العربي. كما تتخلل هذه الرؤية المعرفية لدى الجابري مقارنات بين الشافعي والجاحظ وابن وهب..الخ. كل ذلك في إطار المعقول الديني العربي.

وعلى هذا فان توظيف الشافعي من قبل صاحب مشروع نقد العقل العربي لم يكن في ذاته، بل من أجل بناء القطيعة الابستيمولوجية. لنستمع الى المفكر المغربي محمد عابد الجابري: 'ويأتي ابن حزم ليعود بعلم الأصول هذا العلم الذي نما وترعرع ونضج واكتمل الى نقطة البداية ليستأنف النظر لا فيما يقرره الشافعي وحسب، بل فيما قرره أساتذة هذا الأخير وتلامذته'.(صفحة 515 من بنية العقل العربي ،الجزء الثاني من مشروع نقد العقل العربي).

وأخيرا وليس آخرا فان حضور الشافعية في بنية العقل الأخلاقي العربي، الجزء الرابع من حلقة مشروع نقد العقل العربي، فقد كان في سياق تعقب الموروث الفارسي الذي ساهم في ترسيخ قيم الطاعة وأصول الاستبداد في الثقافة العربية القديمة. ولعل الشافعي من الذي خاضوا هذه المعركة في تقنين الرأي وتحديد السلطة. ذلك ما سينهض به الكاتب عبد المجيد الصغير.

لقد سارع عبد المجيد الصغير في نصه المعنون بـ: 'الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام. قراءة في نشأة علم الأصول ومقاصد الشريعة'. (1994)، بتوظيف رؤية منهجية تستند على تحليل الأفكار والنماذج من خلال الحمولة الإيديولوجية والسياسية. اعني علاقة الفكر والمفهوم بالمغزى المعرفي ثم الإيديولوجي. اعني الاستناد على سوسيولوجيا المعرفة، لكن ذات رؤية فلسفية كما يؤكد صاحب الكتاب بذاته. وهكذا نهج عبد المجيد الصغير نهج مراجعة تصورات زائفة عن علم الأصول الفقه والشريعة في الخطاب الاستشراقي والخطاب العربي، في نماذج :برانشفك وأدونيس وحسن حنفي وعبد المجيد التركي.. ثم بعد ذلك يعلق الباحث الصغير بأن هؤلاء الدارسين قد اغفلوا إغفالا مهولا هاجس السلطة والشرعية التي كانت: 'وراء الكتابات الفقهية والكلامية والفلسفية في الاسلام... ولعل هذا ما يشجعنا اليوم على تعرية الغطاء عن هذه القناعة الزائفة التي تقاس في الفصل بين العلمي والسياسي في تاريخ الإسلام'.(صفحة 13 من كتاب الفكر الأصولي(.

ان تقنين الرأي من قبل الشافعي، في رأي الصغير، هو في حقيقة الأمر تحديد لسلطة تدخل رجل الدولة والسياسة في توظيف مصطلحات العلم واستغلاله لصالحه..فكانت 'المبادرة بتوحيد الفقهاء لموقفهم العلمي أو

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

المعرفي من تلك الأصول والضوابط التي تسري على الراعي نفسه' (صفحة 161 من كتاب الفكر الأصولي..) ثم يضيف عبد المجيد الصغير منتقدا صور حضور الشافعية في الخطاب العربي، بقوله: 'كثيرون اغفلوا هذا المقصد السياسي الخاص في مشروع الشافعي واعتبروا محاولته توحيد الأصول مجرد متابعة لدعوة ابن المقفع الى سلطة الخلافة بتوحيد الشريعة. غير ان قارئ رسالة الشافعي لا يمكن إلا ان يلاحظ مدى التعارض الكبير بين مقاصد رسالة الصحابة لابن المقفع ومقاصد صاحب رسالة في أصول الفقه'. (صفحة 164 من كتاب الفكر الأصولي..).

وعلى هذا فان نشأة علم أصول الفقه لا يرتد الى وجود فساد في ملكة اللسان أو نسيان أسباب النزول..بقدر ما هو: 'إنقاذ النص، المؤسس للشرعية في الاسلام من محاولات الاستغلال والتوظيف التي ظهرت باسم 'المصلحة' أو لأي اعتبار آخر.

غالبا ما يكون مصدره المالك لقوة السيف والرقاب'. (صفحة 171 من كتاب الفكر الأصولي..). وهذه الرؤية نابعة من صلب تعقد إشكالية الصراع بين السلطة العلمية وسلطة رجل الدولة في تاريخ الاسلام.

وأخيرا وليس آخرا ان طبيعة حضور الشافعية في الخطاب العربي المعاصر إنما ترتبط بهاجس إيديولوجي أو معرفي ابستيمولوجي، اعني في سياق انجاز قراءة جديدة للتراث العربي الإسلامي. من ثمة كانت خلفيات كل من نصر حامد أبو زيد ومحمد عابد الجابري وسالم حميش وعبد المجيد الصغير في تقريب متن الشافعي متباينة منهجا ورؤية، وان كانت هنالك بعض الخصائص المشتركة. غير أن هذه الرؤى والتصورات المنهجية والنظرية إنما هي محكومة بمقولات القطيعة والانفصال أو بالاستمرارية والهوية، والوظيفة والبنية..وغيرها من مؤشرات المنهج ومنطلقات الرؤية.. والتي تعكس رؤيا للعالم والتاريخ والإنسان، سواء سلك الدارس مسلك المنهج الإيديولوجي او المنهجي الابستيمولوجي والنهج البنيوي او التاريخاني..إذ ان الامر ينتقل من الرؤية المنهجية الى معضلة التأويل.

'كاتب من المغرب

This file was downloaded from QuranicThought.com